عن الخطيئة، الفصل الثاني من اللاهوت الأخلاقي

المتروبوليت فيلاريت فوسنسنسكي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

نحن، المسيحيين، نعرف من الكتاب المقدس ونـؤمن أن الله خلـق الإنسـان على صـورته ومثالـه. وهكـذا، عنـد الخلق، أُعطي الإنسان طبيعة بلا خطيئة. ولكنْ حتى الإنسـان الأول، آدم، لم يبـقَ بلا خطيئـة، بـل فقـد طهارتـه الأصلية في أول سقوط خاطئ في الفردوس. لقد أصاب سم هذه الآثـام البشـرية جمعـاء الـتي أنتجت أسـلافاً خطأة، مثلما ينضح نبع مسموم ماءً نتناً. يضيف الإنسان خطيئته الشخصية إلى قابليـة الخطيئـة الموروثـة من أسلافنا. لا عجب في ما يقوله الكتاب المقدس عن كل واحد منا، "ما من إنسان يعيش يوماً ولا يخطأ". وحـده الرب يسوع المسيح طاهر تماماً من أي خطيئة. حـتى الأبـرار، قديسـو الله، هنـاك خطيئـة في داخلهم مـع أنهم جاهدوا، بمعونة الله، إلا أنهم مع ذلك، بتواضعهم، اعتبروا أنفسهم خطأة. كـل البشـر، بـدون اسـتثناء، مصـابون بالخطيئة.

الخطيئة هي جذام روحي، مرض، قرحة أصـابت الطبيعـة البشـرية كلهـا، روحـاً وجسـداً. لقـد دمـرت الخطيئـة القدرات الأساسية الثلاث أو قوى الروح: العقل والأحاسيس (القلب) والإرادة. لقد أظلم العقل البشـري وأصـبح ميالًا إلى الخطـأ (كـان لـدى الرومـان قـول مـأثور، "الخطـأ إنسـاني")، والإنسـان يخطئ باسـتمرار في العلـوم والفلسفة وفي حياته اليومية. بالخطيئة يتضرر كثيراً قلب الإنسان، مركز أحاسـيس معاناتـه من الخـير والشـر والحزن والسعادة. نرى أن قلبنا الذي غُطّي بطين الخطيئة وعفنها، قـد اسـتنفد طاقاتـه من الشـعور المسـيحي الروحي الطاهر والنبيل. بالمقابل، أصبح ميالاً إلى اللذة الحسية والروابط الأرضية، ملوثاً أيضاً بـالغرور، مُفتقـراً بشكلٍ تامٍ ومثير للدَّهش إلى المحبة وتمني الخير لأخيه.

بالطبع، أكبر ضرر لحق بإرادتنا هو في قدرتنا على العمل وتحقيـق نوايانـا البشـرية. تبـدو إرادة الإنسـان عاجزة بشكل خاص عنـدما يحتـاج إلى تحقيـق الصـلاح المسـيحي الحقيقي أكـثر من غـيره، حـتى عنـدما يريـد هـذا الصلاح. قال الرسول بولس عن ضعف الإرادة المحزن هذا "لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَـلِ الشَّـرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (روميـة٧:١٩). لـذلك يقـول المسـيح المخلص عن الإنسـان الخـاطئ " أَجَابَهُمْ يَسُـوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُـوَ عَبْـدٌ لِلْخَطِيَّـةِ"(يوحنـا٧:٣٤). ومـع ذلـك، غالبـاً مـا يبـدو للخاطئ نفسه أن خدمةَ الخطيئة هي الحرية، وأن الكفاحَ ضد أفخاخ الخطيئة هو عبودية...

كيف تتطور الخطيئة في نفس الإنسان؟ إن القديسين آبـاء النسـك والتقـوى المسـيحيين هم أفضـل من جميـع أطباء النفس المتعلمين الذين يدّعون معرفة النفس البشـرية الخاطئـة. وهم يفرقـون بين مسـتويات الخطيئـة التالية: أول لحظة للخطيئة هي مباشرتها، أي عندما تبدأ التجربة بالتأطر في وعي الإنسان، كانطباع خاطئ، أو

فكر نجس وما إلى ذلك. إذا رفض الإنسان الخطيئة في هذه اللحظة الأولى بشكل حاسم وفوري، فلن يخطأ، بل سيهزمها، ويقتني لنفسه زائداً لا ناقصاً . من الأسهل التغلب على الخطيئة في البداية. إذا لم تُرفض البداية، تتحول تدريجياً إلى سعي غير واضح ومن ثمّ إلى رغبة واعية وواضحة بالخطيئة. هنا يبدأ الشخص بالفعل بالانجذاب نحو نوع معين من الخطيئة. يمكنه في هذه اللحظة، دون صراع صعب بشكل خاص، أن يقاوم الاستسلام لها وألا يخطأ، إذ يساعده صوت ضميره الواضح – كما معونة الله إذا طلبها.

لقد وقع الإنسان في الخطيئة. تبدو توبيخات الضمير صاخبةً وواضحة، مثيرةً ببساطةٍ اشمئزازاً شديداً تجاه هذه الخطيئةِ في شخص لم يفسد بعد. مع اختفاء الثقة السابقة بالنفس، يصبح الشخص متواضعاً. انظروا إلى الرسول بطرس قبل وبعد إنكاره. ولكنْ حتى هنا، فإن الانتصار على الخطيئة ليس صعباً جداً، كما تدل على ذلك أمثلة عديدة لبطرس الرسول نفسِه، وللملكِ والنبي القديسِ داودَ، وغيرهما من الخطأة التائبين.

من الصعوبة بمكان محاربة الخطيئة عندما تصبح عادة، لأنها تتكرر كثيراً. هذا يعني بشكل عام أنَّه، حينَ تُكتَسَب أيُّ عادةٍ، فإنَّ الأفعال المعتادة تُنفَّذُ بشكلٍ تلقائي تقريباً بدون أن يلاحظها الشخص. إن الصراع مع الخطيئة التي أصبحت اعتيادية أمر صعب للغاية، إذ يصعبُ، ليس فقط التغلب على الذات، بل أيضاً مراقبة اقتراب الخطيئة وملاحظتها.

المرحلة الأكثر خطورة في الخطيئة هي الرذيلة. في هذه الحالة، تتحكم الخطيئة بالإنسان حتّى أنها تقيد إرادته كما بالسلاسل. يكاد الإنسان يكون عاجزاً عن محاربة نفسه في هذا ويصبح عبداً للخطيئة، على الرغم من إدراكه لأضرارها، وكرهه لها من كل قلبه في لحظات الصفاء. ينطبق هذا مثلاً على رذيلة السُكر وإدمان المخدرات وما شابه ذلك. في هذه الحالة، وبدون رحمة ومعونةٍ خاصة من الله، يكون الإنسان عاجزاً بالفعل عن التحكم بنفسه، ويحتاج إلى صلاة الآخرين ودعمهم الروحي. على المرء أن يتذكّر أنه، حتى الخطيئة الصغيرة، كالثرثرة ومحبة اللباس والترفيه الفارغ وما إلى ذلك، قد تصبح رذيلة إذا هيمَنت بالكامل وملأت نفسه.

إن أعلى مراحل الخطيئة، حيث يُستعبَد الشخص بشكل كامل، هي الشغف بهذا النوع أو ذاك من الخطيئة. في هذه الحالة لا يكره الإنسان خطيئته كما الرذيلة (هذا هو الاختلاف بينهما)، بل يُخضِع للخطيئة كل تجاربه وأفعاله وحالاته المزاجية. قارنوا بين بليوشكين[١] في "النفوس الميتة"، أو فيودور كارامازوف[٢] في "الإخوة كارامازوف"، بعاشق المال يهوذا الإسخريوطي. في هذه الحالة، يعترف الشخص بوضوح وحرفياً بوجود الشيطان في قلبه؛ كما يَرِد عن يهوذا في الإنجيل المقدس. إذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة، ما من شيء يمكن أن يساعد سوى صلاة الكنيسة التي تمنح النعمة والتأثير.

١ ستيبان بليوشكين هو شخصية خيالية في رواية "النفوس الميتة" لنيكولاي غوغول. هو مالك أرض يجمع بقلق شديد ويحفظ كل ما يجده، حتى أنه لا يستغل ممتلكاته بسبب تعلقه بما يملك. نسبة إليه، تُعرَف اليوم "متلازمة بليوشكين" وهي مشكلة الأشخاص المصابين بما يعرَف بالاكتناز القهري، أي الذين يجمعون أشياء مختلفة غير مفيدة ويتمسكون بها.

٢ فيودور كارامازوف هو شخصية خيالية من رواية "الأخوة كارامازوف" لفيودور دوستويفسكي. هو شخص متحرر منغمس في نفسه ووقح، ولا يهتم بأي شكل من الأشكال بالمسؤوليات العادية للأبوة أو المسائل الأخلاقية الناشئة عن مفاهيم الالتزام الأبوي. يظهر أن دوستويفسكي يستعمل هذه الشخصية لتصوير واقع التفكك الاجتماعي.

هناك نوع آخر خاص رهيب ومهلك من الخطيئة. إنه خطيئة مميتة. حتى صلاة الكنيسة لا تساعد الإنسان في حالة هذه الخطيئة. إذْ يدعونا الرسول يوحنا الإلهي للصلاة من أجل أخينا الخاطئ، فإنه يشير بوضوح إلى عدم جدوى الصلاة من أجل خاطئ لا يريد أن تُغفَر خطيئته "إِنْ رَأَى أَحَدٌ أَخَاهُ يُخْطِئُ خَطِيَّةً لَيْسَتْ لِلْمَوْتِ، يَطْلُبُ، فَيُعْطِيهِ حَيَاةً لِلَّذِينَ يُخْطِئُونَ لَيْسَ لِلْمَوْتِ. تُوجَدُ خَطِيَّةٌ لِلْمَوْتِ. لَيْسَ لأَجْلِ هذِهِ أَقُولُ أَنْ يُطْلَبَ" (١يوحنا ١٦:٥).

يقول ربنا يسوع المسيح أن هذه الخطيئة هي التجديف على الروح القدس ولا تُغفَر للناس في هذا العالم ولا في المستقبَل. لقد قال هذه الكلمات الرهيبة ضد الفريسيين، الذين رأوا بوضوح أنه فعل كل شيء بحسب إرادة الله وبقوته، ومع ذلك فقد شوّهوا الحق بعناد وأصروا على الافتراء بأنه تصرف بقوة روح شرير نجس. لقد هلكوا في تجديفهم، وهذا المثال مفيد ومخيف لكل أولئك الذين يرتكبون تلك الخطيئة المميتة، ويعارضون بعناد ووعي الحقيقة التي لا شك فيها، ويجدفون على الروح القدس، روح الله القدوس. من الضروري أن نلاحظ أنه، حتى التجديف على ربنا يسوع المسيح نفسه، يمكن أن يُغفَر لشخص (حسب قول الربِّ نفسه)، لأنه قد يحدث بسبب الجهل التام أو العمى المؤقت.

حسب تعليم القديس أثناسيوس الكبير، لا يُغفَر التجديف على الروح القدس إلا بعد أن يتوقّف الإنسان عن ذلك ويتوب. لكن هذا لا يحدث عادة، لأن نوع هذه الخطيئة بالذات وطابعَها بالذات يجعل العودة إلى الحقيقة شبه مستحيلة. قد يرى المعمي مرة أخرى ويحبّ الحقيقة، وإذْ هو ملوث بالرذائل والأهواء، يمكنه أن يغتسل بالتوبة ويصبح معترفاً بالحق. ولكن مَن وماذا يمكن أن يغيّر المجدّف، الذي رغم أنه يرى ويعرف الحقيقة إلا أنه يرفضها بعناد ويكرهها؟ وهذه الحالة الفظيعة تشبه حالة الشيطان الذي يؤمن بالله ويرتجف، ويكرهه ويفتري عليه ويعارضه.

عندما تظهر تجربة الخطيئة أمام الإنسان، فإنها تأتي عادةً من ثلاثة مصادر: الجسد والعالم والشيطان.

من المؤكد أن جسد الإنسان، في كثير من الحالات، هو العشّ، مصدر الميول والنزعات والمشقات اللاأخلاقية. الخطيئة الجدّية هي ميلنا العام الحزين تجاه الخطيئة، الموروث من خطايا أسلافنا ومن سقطاتنا الشخصية الخاطئة، التي تتراكم وتقوّي بعضها البعض، مما يخلق مصدراً للهوى والميول الخاطئة والأفعال في أجسادنا.

في كثير من الأحيان، يكون العالم المحيط بنا، والذي، بحسب الرسول يوحنا الإلهي، "قَدْ وُضِعَ فِي الشِّرِّيرِ" (١ يوحنا ٥:١٩)، مصدر تجربة لنا. ونعلم أننا من الله، والعالم كله قد وضع في الشر. الصداقة مع العالم، بحسب كلمة رسول آخر، هي عداوة لله. " أَيُّهَا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ للهِ؟ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ، فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا للهِ"(يعقوب٤:٤). إن البيئة المحيطة والناس يغروننا. هناك كثيرون ممَّن يعثِرون الشباب ويحرفونهم بشكلٍّ مُتعمَّدٍ وواعٍ، وعنهم قال ربنا: "وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ" (متى ٦:١٨). إن الوفرة الخارجية، الثروة والراحة والرقص اللاأخلاقي والمؤلَّفات القذرة والملابس الوقحة، هي تجارب. كل هذه هي مصادر نتنة للخطيئة والتجربة.

المصدر الأهم للخطيئة وأصلها المتجذّر هو الشيطان بالطبع، وعنه قال الرسول يوحنا الالهي: " مَنْ يَفْعَلُ الْخَطِيَّئَـةَ فَهُـوَ مِنْ إِبْلِيسَ، لأَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ الْبَـدْءِ يُخْطِ أ" (١يوحنـا ٨:٣).وفي مصـارعته لله وحقيقتـه، يحـارب الشيطان النـاس أيضـاً، ويسـعى إلى تـدمير كـل واحـد منـا. يكـون الشـر فاضـحاً بشـكل خـاص عنـدما يصـارع القديسين (حتى أنـه تجـرّأ على تجربـة الـرب يسـوع المسـيح)، كمـا يتضـح في الإنجيـل المقـدس وفي حيـاة القديسين. نحن، الواهين والضعفاء، يحمينا الرب بقوته من التجارب القاسية التي تعرّض لها قديسـوه الأقويـاء بالروح. لكن الشيطان لا يصرف انتباهه عنا، فاعلاً من خلال أهـواء العـالم والجسـد، جـاعلاً إياهـا أقـوى وأكـثر إغواءً، وأيضاً مُجرِّباً إيانا بشتى أنواع الأفكار الآثمة.

في السنوات الأخيرة، كان تأثير الشرير، إلى جانب الشـرور الأخـرى، واضـحاً بشـكل خـاص في تفشّـي أشـكالِ الانتحار المختلفـة. لهـذا يقـارن بطـرس الرسـول الشـيطانَ بالأسـد الزائـر السـاعي وراءنـا، "طالبًـا من يبتلعـه" (" أُصْحُوا وَاسْهَرُوا. لأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ" ١بطرس ٨:٥).

Source: Metropolitan Philaret (Vosnesensky). On Sin. Moral Theology, Chapter 2. Parish Life, November 2021. Russian Orthodox Cathedral of St. John the Baptist. 11/29/2021. https://orthochristian.com/143098.html